

2020

بنية النص الحكائي في كتاب البخلاء للجاحظ

علي عمرو
alia@hebron.edu, جامعة الخليل

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/hujr_b



Part of the [Arts and Humanities Commons](#)

Recommended Citation

"بنية النص الحكائي في كتاب البخلاء للجاحظ" عمرو, علي (2020) *Hebron University Research Journal-B (Humanities) - (العلوم الانسانية) ب*: Vol. 5 : Iss. 2 , Article 8.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/hujr_b/vol5/iss2/8

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Hebron University Research Journal-B (Humanities) - (العلوم الانسانية) ب مجلة جامعة الخليل للبحوث by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.



بنية النص الحكائي في كتاب البخلاء للجاحظ

*د. علي عمرو

قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الخليل - فلسطين

الملخص:

الحكاية وحدة سردية استطاع الجاحظ من خلالها أن يعرض حكاياته في كتبه، وقد اختلف بناء الحكاية عنده في كتاب البخلاء عن كتبه الأخرى؛ لأن الكتاب كله حكايات عن البخلاء، فهو يبين أصول علم البخل وفلسفته عن طريق هذه الحكايات التي لون في طريقة سردها بأشكال مختلفة، وبخاصة في الاستهلال السردية الذي بلغ عنده عشرات الأشكال.

وقد عرض الجاحظ تشكيل البنية السردية من حيث الراوي، والمروي، والمروي له، فكان الراوي عنده واحداً أو اثنين أو ثلاثة، والمروي إما أن يكون عدة صفحات أو عدة كلمات، أما المروي له فهو إما معلوم أو مجهول، ولم يغفل الجاحظ المكان والزمان في حكاياته لأهميتهما كما عرض للوصف بشقيه الحسي والنفسي، أما شخصياته فجعلها قسمين: إما بخيل ضحية أو بخيل منتصر. فجاء بناء الحكاية عنده شاملاً لكل عناصر البناء المطلوبة.

Abstract :

The tale is a narrative unit through which Al-Jahiz could present his tales in his books. The structure of the tale differs in his book Al-Bukhala' from his other books, because the entire book is about the misers. He indicates the principle of stinginess and its philosophy by means of these tales which he varied in the method of their narration by different forms, specially the narrative introduction which amounted to tens of forms. Al-Jahiz presented the narrative and the one narrated to. With Al-Jahiz the narrator was one, two or three. The narrative was either several pages or several words. As for the one narrated to, he could be known or anonymous. Al-Jahiz did not forget time and place in his tales. He presented the description in its two parts, the sensory and the psychological. As for his characters, he divided them into two parts: either a miser who is a victim or a victorious miser. For him the structures of the tale includes all the required elements of the artistic structure.

الملاحظ :

سنة (255هـ)، حيث حدث يموت ابن المزرع قال: «وَجَّهَ المتوكل أن يحمل إليه الجاحظ من البصرة فقال لمن أراد حمله: وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ذي شق مائل، ولعاب سائل، وفرج بائل، وعقل حائل»⁽⁵⁾ وحدث المبرد قال: «دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بقربه لآله، وأشر من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم أنشدنا: أترجو أن تكونَ وأنت شيخ كما قد كنتَ أيامَ الشباب لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب»⁽⁶⁾

أما البيئات التي أثرت في حياته، فهي الحياة العامة فقد عاش في البصرة، وكانت في ذلك الوقت مدينة كبيرة تزخر بأهلها، وكانت الحياة فيها معقدة،

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب مولى أبي العلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي⁽¹⁾ ولد سنة (150هـ) حسب رواية الجاحظ حيث قال: «أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها»⁽²⁾، وكان مولده في البصرة. توفي أبوه وهو صغير، فكفلته أمه، ولكنها فقيرة تحمل الجاحظ أعباء الحياة صغيراً، فكان عليه أن يعمل ويجهد ليكسب أسباب الحياة، فقد رُئي وهو يبيع الخبز والسّمك بسحبان إحدى جهات البصرة⁽³⁾. وحدث أبو هفان قال: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر»⁽⁴⁾. وقد أصيب في آخر حياته بالفالج والنقرس وتوفي

أهمية هذا الكتاب.

كتاب البخلاء عبارة عن جزئين يحتويان على تسعة وثلاثين ومائة عنوان بين رسالة وحديث وقصة ومقالة ورواية وتفسير وخبر وواقعة وحكاية ونادرة ، كما يشتمل على مقدمة طويلة نتبين من خلالها الأمور المهمة التالية :

(1) إجابته الطلب في تأليف هذا الكتاب لأحد عظماء الدولة ، حيث طلب منه التأليف في نواصر البخلاء.⁽¹³⁾

(2) التفصيل في الموضوعات التي طلبها منه؛ لكي يخبره عنها وقد صَدَرها بعبارة : «وقلت» ، من مثل قوله : «وقلت : فبين لي ما الشيء الذي خبل عقولهم وأفسد أذهانهم...»⁽¹⁴⁾ ، «وقلت : ولا بد أن تعرفني الهنات ثمت عن المتكفين ...»⁽¹⁵⁾.

(3) يعتبر كتاب البخلاء دراسة لطبقة من الطبقات الاجتماعية، ولكن مؤلفه لم يعمد في هذه الدراسة إلى طريقة فلسفية مجردة أو تاريخية نقليّة بل سلك طريقة أدبية، وهي طريقة القصص ، فعرض هذه الطبقة من الناس في ضرب من التصوير الأدبي البديع يظهر من ورائه عقلياتهم ونفسياتهم المختلفة، ويغني عن كثير من الدراسات الفلسفية والتحليلات الاجتماعية ويفضلها بإبراز الحقيقة بشكل فني جميل.⁽¹⁶⁾

فبخيل الجاحظ يختلف عن غيره من نماذج البخلاء في أنه ينتمي إلى مجتمع بخيل، يجسد مذهبه في البخل ، فهو ليس نموذجاً معزولاً عن محيطه وحتى عن عائلته، بل ينتمي إلى مجتمع يرتبط بأفراده، ويأس إليهم ويشعر ويشعرون بإنتماء بعضهم إلى بعض، ويؤيد ذلك أننا وجدنا البخيل يجسد كثيراً من الروابط الاجتماعية⁽¹⁷⁾ ، فقد وجدناه أمّا⁽¹⁸⁾ وأباً⁽¹⁹⁾ وزوجاً⁽²⁰⁾ وزوجة⁽²¹⁾ وأبنا⁽²²⁾ .

(4) منهجه في الكتاب: بدأ كتابه برسالة سهل بن هارون إلى ابن عمه ومن ذمّوا مذهبه في البخل ، وبين

جياشة بمختلف النزعات ، فعاش الجاحظ حياته الأولى متّصلاً بالحياة العامّة اتّصلاً وثيقاً متغلغلاً بين طبقاته تغلغلاً عجيباً.⁽⁷⁾

والبيئة الثانية هي سوق المبرد ، والثالثة المسجد ، والرابعة الأندية الأدبية ، والأخيرة دكاكين الوراقين وكان لها التأثير الكبير على الجاحظ وعقليته، وانعكس ذلك في أدبه وبخاصة في كتابه البخلاء

مؤلفاته

كتب الجاحظ خمسين ومائة من الكتب المختلفة البحوث⁽⁸⁾ وأشهر ما كتبه « الحيوان » كتبه لمحمد بن عبد الملك ، وكتاب « البيان والتبيين » قدّمه إلى القاضي أحمد بن أبي داود ، وكتاب « البخلاء » وهو كتاب أدب وعلم وفكاهة، وقد كتبه وهو هرم يحمل فوق كتفيه أعباء السنين.⁽⁹⁾

كتاب البخلاء :

إنّ الجاحظ أول من أفرد للبخل كتاباً بين فيه نفسيات البخلاء وميولهم وأهواءهم وفلسفتهم في البخل ، وجعل ذلك في قصص ممتعة وأخبار شائقة يقرأها الأديب فيطرب وغير الأديب فيعجب.⁽¹⁰⁾

وقد وصم بخلاء هذا الكتاب الكرم بكثير من المثالب وتجنوا عليه في ملح نادرة وفصول بارعة.⁽¹¹⁾

ولم يأخذ الجاحظ نماذج من بطون الكتب وقديم الأخبار، بل جاء بهم من بيئته واستمدّهم من خلصائه وخلطائه ذوي الظرف والدعابة ، من مجتمعه البصري ، أو البغدادي ، أو من غيرهما.⁽¹²⁾

وقد تناول الباحثون هذا الكتاب بكثير من الدراسات تناولته من جوانبه المختلفة من مثل : « بخلاء الجاحظ في قصص » و « صورة بخيل الجاحظ الفنية » و « الجاحظ وفن القصص في كتابه البخلاء » و « السرد في حكايات البخلاء » ، وهذا يدل على

أما الجزء الثاني فجاء في أربع قصص وسبعة أحاديث وسبع نوادر وعشر حكايات ورسالتين ، والجزء الأعظم منه تحت عناوين مختلفة مثل : ما قاله ... ما حدث به ... كلام... ما أخبر به ... ما كان ... ما وقع ... ما فعله ... ما دار ... ما أجاب به ... وقد بلغ ذلك اثنين وسبعين عنواناً.

إن الناظر إلى هذا التقسيم يتصور أنّ الكتاب عبارة عن أجزاء متفرقة ومتناثرة لا يربط بينها رابط، بينما القارئ في الكتاب يتبين سلسلة الانتقال من موضوع إلى آخر دون انفصال، وكأنها ثيمات لموضوع واحد، لأن الرابط الهديفي و الرابط الأسلوبى و الرابط الموضوعى قد غطت على الاختلاف في العناوين، وتنوع الكلام من حيث كونه وضع على شكل قصة، أو حكاية، أو نادرة، بل إن هذا التنوع يجعل الموضوع وكأنه باقية ورد ألفت من عدة أنواع من الورد، نسقت تنسيقاً جيداً، فتكون أجمل من باقية أخرى مكونة من نوع واحد من الورد ولنبيين ذلك نضرب بعض الأمثلة في الانتقال من شكل إلى آخر فمثلاً يذكر حديث النظام « وقال أبو اسحاق إبراهيم بن سيار النظام : دعانا جار لنا ، فأطعمنا تمرًا وسمناً سلاء⁽²⁷⁾، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت، والخراساني معنا يأكل، فرأيت يقطر السمن على الخوان، حتى أكثر من ذلك . فقلت لرجل إلى جنبي : ما لأبي فلان يضع سمن القوم ، ويسيء المؤكلة ، ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت عليه؟ قلت : لا والله! قال : الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسمه ؛ ليكون كالذبغ له ، ولقد طلق امرأته وهي أم أولاده لأنه رآها غسلت خواناً له بماء حار ، فقال لها : هلا مسحته »⁽²⁸⁾ ثم يتبع هذا الحديث بمقالة لأبي نواس : « قال أبو نواس: كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد رجل من أهل خراسان وكان من عقلائهم وفهمائهم ، وكان يأكل وحده ، فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس عليّ في هذا الموضوع

أنّ الكتاب يحتوي على ثلاثة أشياء « تتبين حجة طريفة ، أو تتعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة »⁽²³⁾ ، و مع تبيان أسلوبه الذي يوالي فيه بين الجدّ واللّهو، والضحك والبكاء، وبين فوائد كلّ منهما، كما اعتذر عن عدم الافصاح بأسماء كثير ممن روى عنهم الأخبار والحكايات؛ لأنّ فيهم الصديق والولي والمستور والمتجمل⁽²⁴⁾ ، وكذلك فهو يذكر كثيراً من الأحاديث مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أصحابها ، إمّا بالخوف منهم وإمّا بالإكرام لهم.⁽²⁵⁾ ويختتم هذه المقدمة بأنه لم يتكلف هذا الكتاب إلا إجابة للسائل، لذلك فاللائمة على السائل والعذر للجاحظ.

ومن هذا نتبين أنّ هدف الكتاب من أوّله إلى آخره هو تبيان أصول علم البخل وفلسفته، بأسلوب الجاحظ ببيانه الجزل الرصين ، وقدرته الفاتقة على صياغة النادرة في أوضح بيان وأدقّ تعبير وأبرع وصف.⁽²⁶⁾

ثم يتبع ذلك بمحتويات الكتاب التي جاءت غير مرتبة أو مبوبة بنظام معين ، فقد بدأه برسالة سهل بن هارون وتلاها بطرف أهل خراسان، لإكثار الناس في أهل خراسان وبخاصة أهل مرو بقدر ما خصّوا به في هذا الباب.

وقد فصل ذلك في واقعة وأحد عشر حديثاً وخمس قصص وثلاث روايات ، وقد جعل القارئ ينتقل بين هذه الأمور فلم يجعلها مرتبة على طريقة معينة بل ينتقل من الحديث إلى القصة الواقعة، ثم يعود إلى الحديث أو القصة مرة أخرى؛ ليخفف عن القارئ الملل، ثم اتبع ذلك بقصص أهل البصرة من المسجدين وغلب على هذا الجزء القصص، حيث جاء في أربع عشرة قصة وحديث واحد وتفسير واحد ، وبذلك انتهى الجزء الأول بالحديث عن ثلاثة أشياء، رسالة سهل بن هارون، وأهل خراسان، وقصص المسجدين .

نهم ، وصبيّ جشع ، وأمة لكعاء ، وزوجة خرقاء ، وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، أن يستوي في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، ... التابع والمتبوع والسيد والمسود ... فعبتموني بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق ، وختم على كيس فارغ، وقال : طين خير من طنة ، فامسكتم عمن ختم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء»⁽³⁵⁾.

«وعبتموني حين قلت للغلام : إذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، ليجمع بين التادم باللحم والمرق ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : «إذا طبختم لحمًا فزيدوا في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحمًا أصاب مرقًا»⁽³⁶⁾.

ويمضي سهل بن هارون في هذا الحجاج يعرض مما عابوا عليه، ثم يرد عليه بالحجة الدامغة ، وهي قصة طويلة بلغت اثنتي عشرة صفحة.

ومن هذا القبيل الكلام في الشيء وضده بواسطة القياس المضمر ، «ومن أساليب الكلام في الشيء وضده ، استخدام ما يسمى في المنطق بالقياس المضمر ، وهو قياس منطقي حذفت إحدى مقدماته، وهذا القياس أصلح للخطابة، وشائع في المناظرات الخطابية الجدلية، الهادفة إلى إفحام الخصم وإحراز الغلبة ، ولا سيما عندما تكون المقدمة المحذوفة مظنونة غير مقررّة»⁽³⁷⁾.

وفي كتاب البخلاء يتجلى هذا الأسلوب بصورة بارزة في قصة تمام بن جعفر حيث يحتج بطلها البخيل بالتوالي للشيء وضده ، فكان أن قال له نديم له : ما في الأرض أحد أمشي مني ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر⁽³⁸⁾ مني ! قال : وما يمنعك من ذلك : وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك ! فإن قال : لا والله إن أقدر أن أمشي ؛ لأنني أضعف الخلق عنه ، وأنني لأنبهر⁽³⁹⁾ من مشي ثلاثين خطوة ! قال : وكيف

مسألة، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ؛ لأن ذلك هو التكلّف، وأكلي وحدي هو الأصل ، وأكلي مع غيري زيادة في الأصل »⁽²⁹⁾ ثم يتبع ذلك بقصة طويلة عن شيخ من أهل خراسان، وهي تتحدث أيضًا عن الطعام.⁽³⁰⁾

وقد وجدنا أن نصوص البخلاء تنقسم إلى فصيلتين اثنتين تبدو الحدود بينهما واضحة إلا في بعض النصوص، فالفصيلة الأولى تشتمل على مجموعة من الرسائل أنتجها منظرو البخلاء، وتشتمل الفصيلة الأخيرة من النصوص على قصص قصيرة ونوادر مقتضبة تمثل لقطات من حياة البخلاء اليومية ويمكن اعتبارها تطبيقًا للناحية النظرية المتجمعة في الرسائل والوصايا .⁽³¹⁾

وقد أشار الجاحظ إلى هذا التقسيم في مقدّمة الكتاب بقوله : « فأما ما سألت من احتجاج الأشياء ونوادر أحاديث البخلاء فسوف تجد ذلك في قصصهم - إن شاء الله - مفرقًا وفي احتجاجاتهم محملاً »⁽³²⁾. وتشكل الفصيلة الأولى نصف الكتاب تقريباً، وقد جاءت على شكل رسائل ووصايا وردود مطولة، وقد عزاها الجاحظ إلى أعلام البخلاء من أمثال سهل بن هارون، والكندي، والثوري، وابن التوأم، وخالد بن يزيد، والخزامي، والحارثي، ومحمد بن أبي المؤمل، وأبي سعيد المدائني، وسوف نعرض بعض المقتطفات من هذه الاحتجاجات لنبين الأسلوب الذي اتبع من الاحتجاج في هذه الفصيلة.

مقتطفات من رسالة سهل بن هارون : ⁽³³⁾

«عبتموني بقولي لخادمي : أجدي عجينة خميرًا، كما أجدته فطيرًا ، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه. وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ورحمه - لأهله : أملكوا العجين فإنه أريع الطحنتين⁽³⁴⁾... » وعبتموني حين ختمت على سدّ عظيم ، وفيه شيء ثمن من فاكهة نفيسة ، ومن رطوبة غريبة ، على عبد

وبيس فراشي وظنّ أنّي قد نمت ، فجاء قليلاً قليلاً حتى سلّ المخدّة من تحت رأسي ، فلما مضى بها ضحكت ، وقلت : قد كنت عن هذا غنياً ! قال : إنما جئت لأسوي رأسك ! قلت : إنّني لم اكلمك حتى وليت بها قال: كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي نسيت ما جئت له والنبيذ - ما علمت - والله يذهب بالحفظ أجمع» (43)

وهذه القصص الصغيرة والنوادر المقتضبة عن حياة البخيل وعيشه وما يوجد في ذلك من المحيط من أحداث نفسية ومادية ، وقد جاءت في مجموعات تطول أو تقصر من مجموعة إلى أخرى ، فنحن في هذه القصص بعيدون عن أسلوب الحجاج والأطناب، والجمل الطويلة المركبة، والأساليب الإنشائية ، فالجمل في القصّة يغلب عليها طابع البساطة وتتجه إلى الأخبار ، ونقل الأحداث كما هي وإن كانت لا تخلو من طرافة في مضمونها وفي بعض عباراتها. (44)

تعريف الحكاية:

« تعرّف حكاية « البخلاء » على أنها وحدة سردية مستقلة بذاتها تجسم فعلاً أو حادثاً ما يبيّن أن شخصاً أو أشخاصاً أو جماعة أو طبقة من الناس سواء لهم الصفة التاريخية أم لا، يتصفون بصفة البخل » (45)

« يصنف هذا التعريف حكايات البخلاء باعتبارها مجموعة من الوحدات الأدبية التي برغم اختلافها من حيث الشكل أو التنظيم ، إلا أنها جميعاً تعتمد على الأحداث التي مهما يكن تنوعها فهي تقوم على أساس واحد مشترك هو أنها جميعاً تمثل صفة «البخل» أو طبيعة الشخص « البخيل » وبهذا فهي تشكّل كياناً واحداً، وتناولها فقط ككيان واحد هو الذي سوف يسمح بالقيام بعملية التحليل بطبيعة وبناء ركنها الأساسي كحكايات للبخلاء » (46)

تمشي، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون جملاً! وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأي بطين يقدر على الحركة ؟ وأن الكليظ ليعجز عن الركوع والسجود ، فكيف بالمشي النكير ! (40) ففي جوابه لنديمه - كما في سائر أجوبته في القصة - اعتمد تمام بن جعفر على القياس المضمّر ليرهن أن نديمه شديد الأكل يجاوز مقدار الكفاية، والمضمّر في قياسه هو من أكثر أن يمشي كثيراً ، ولكن السامع لا يدرك التضاد في هاتين المقدمتين إلا بعد طول تفكّر.

« كل ما سبق يمثل مقدرة الجاحظ على صناعة الكلام والمداورة بالمعاني المختلفة» (41) أمّا الفصيلة الثانية والتي تشغل النصف الآخر تقريباً، فهي عبارة عن عدد كبير من القصص القصيرة والنوادر المقتضبة ، ونضرب أمثلة على هذه الفصيلة :

« وزعم أصحابنا أن خراسانية ترافقوا في منزل ، وصبروا على الارتفاق بالمصباح، ما أمكن الصبر، ثم إنهم تناهدوا وتخرجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم ، وأن يدخل في الغرم معهم ، فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينيّه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا، ويطفئوا المصباح فإذا أطفئوا أطلقوا عينيّه » (42) وفي حديث آخر :

« حدثني المكي قال : بتّ عند إسماعيل بن غزوان، وإنما بيّتي عنده حين علم أنّي تعشيت عند موسى وحملت قرية نبيذ ، فلما مضى من الليل أكثره ، وركبني النوم ، جعلت فراشي البساط ومرفقتي يدي، وليس في البيت إلا مصلى له ومرفقة ومخدّة فأخذ المخدّة فرمى بها إلي فأبيتها ورددتها عليه ، وأبى وأبيت ، فقال : سبحان الله، يكون أن تتوسد مرفقك وعندي فضل مخدّة ؟ فأخذتها ووضعها تحت خدي ، فمنعني من النوم إنكاري للموضع

منة الحكاية :

1) الاستهلال السردی :

والبخلاء، ولكي يثبت فكرته عن فلسفة البخل عند أصحابها فهو يدلل على هذه الفلسفة بالناماذج المتعددة والمختلفة عند العامة والخاصة فهي غير مقتصرة على فئة أو طائفة أو عرق أو مستوى اجتماعي أو سياسي ، بل هي متعددة الألوان والمشارب.

ومع اختلاف هذه الصيغ إلا أن أكثرها يشترك في أمرين، الأول الإسناد والآخر أسلوب البداية القصصية، أمّا الإسناد فإن الجاحظ كان يبدأ الحكاية بذكر اسم من رواها له مع ذكر فعل مثل «زعم» أو «أخبر» أو «حدث»، كقوله : « وحدثني أبو الأصبع بن ربعي، قال: دخلت عليه بعد أن ضرب غلمانة بيوم ، فقلت له : ما هذا الضرب المبرح...؟ »⁽⁶²⁾، ومثل: « ولقد خبرني خيَاز لبعض أصحابنا ، أنه جلده على إنضاج الخبز، وأنه قال له: أنضج خبزي الذي يوضع بين يدي ، وأجعل خبز من يأكل معي، على مقدار بين المقدارين .. »⁽⁶³⁾.

ومثل : « زعم أبو يعقوب الحزيمي أن جعفر بن يحيى أراد يوماً حاجة كانت طريقه إليها على باب الأصمعي ... » (64).

كما كان يستعمل صيغة الفعل «قال» بحيث لا يستطيع القارئ أن يقرّر أسمع الجاحظ الحكاية من قائلها أو سمعها من غيره، أم أنه قرأها في الكتب كقوله : « قال : واحتقن عمير بن يزيد الأسدي بحقنة فيها أدهانٌ ، فلما حركته بطنه كره أن يأتي الخلاء ، فذهب تلك الأدهان...» (65).

وفي كثير من الروايات كان يسلسل الإسناد فيذكر من رواها له ومن رواها لهذا الراوي كقوله : « وحدثني صاحب مسلحة⁽⁶⁶⁾ باب الكرخ ، قال : قال لي صاحب الحمام : ألا أعجبك من صالح بن عثمان كان يجيء كل سحر فيدخل الحمام.... »⁽⁶⁷⁾.

أما عندما يكون الجاحظ طرفاً في الحكاية فإنه يرويها بدون اسناد ، مثل قوله : «ومضت أنا وأبو اسحاق

إن المطلع على كتاب البخلاء ليعجب من طريقة استهلال الجاحظ لنوادره وحكاياته عن البخلاء، فقد ورد ذلك بعدد لا حصر له من الصيغ التي يبدأ بها هذه الحكايات والنوادر ، حيث نجده يروي عن أشخاص معروفين، منهم: الأصمعي والنظام وثُمّامة بن أشرس وغيرهم، فهو يروي عن الأصمعي في سبعة مواضع، وقد جاءت بعدة أشكال من مثل : قال الأصمعي أو غيره : حمل بعض الناس مديناً على برزون ... (47) أو تمشّى قوم إلى الأصمعي مع تاجر (48) وحدثني الأصمعي قال : سألت المنتجع بن نهان عن ... (49) وغير ذلك. (50)

ويروي عن النّظام في خمسة مواضع ⁽⁵¹⁾ وعن ثمانية مواضع ⁽⁵²⁾ ، وعن المالكي في ستة مواضع ⁽⁵³⁾ ، وعن أصحابنا دون أن يبدي من هم في خمسة مواضع. ⁽⁵⁴⁾

أما صيغة «وحدثني» فتقع في أربعة وعشرين موضعاً (55)، «وقال» بدون أن يذكر القائل في سبعة مواضع (56)، «وقالوا» بدون تبيان نسبة الضمير أو عودته على المذكورين في تسعة مواضع (57).

وقد نسب القول إلى أشخاص بأعينهم في مواضيع عديدة من مثل : قال إسماعيل بن غزوان: لله درّ الكندي ... (58) ، أو مثل : قال أبو القمام : أول الإصلاح ... (59) وكان يعرف بالشخص القائل في بعض الروايات، مثل: وأما أبو محمد الخزامي ، عبد الله ابن كاسب ، كاتب موسى وكاتب داود بن أبي داود ... (60) وهذا خالد بن فريد مولى المهالبة... (61)، وفي كثير من رواياته لا يعرف به.

وهناك صيغ متعدّدة بدأ بها الجاحظ هذه النوادر والحكايات بلغت في مجموعها مائة وخمساً وعشرين صيغة، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على تنوع مصادر الجاحظ التي أخذ منها حكاياته عن البخل

فإنها ما زالت ترقع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرّقاع ، وذهب القميص الأول ، ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس إلا الرفو ، وذهب جميع الكساء ، وسمعت قول الشاعر :

البس قميصك ما اهتديت لجيبه

فإذا أضلّك جيبه فاستبدل

فقالتي إني إذا خرّقاء ! أنا والله أحوّصُ الفتق وفتق الفتق ، وأرّقع الخرق وخرق الخرق...»⁽⁷³⁾.

2) تشكيل البنية السردية :

تشكل البنية السردية من تضافر ثلاث مكونات هي الراوي والمروي والمروي له .
أ- الراوي :

يعرف الراوي بأنه ذلك « الشخص الذي يروي الحكاية أو يخبر عنها ، سواء أكانت حقيقة أم متخيلة » ، ولا يشترط أن يكون الراوي اسماً متعينا ، فقد يكتفي بأن يتقن بصوت أو يستعين بضمير ما ، يصوغ بواسطته المروي.⁽⁷⁴⁾

ب- المروي :

ويمكن تعريف المروي ، بأنه كل ما يصدر عن الراوي؛ وينتظم لتشكيل مجموعة من الأحداث تقتزن بأشخاص، ويؤطرها فضاء من الزمان والمكان، وتعد « الحكاية » جوهر المروي ، والمركز الذي تتفاعل عناصر المروي حوله بوصفها مكونات له .⁽⁷⁵⁾

ج- المروي له :

أما المروي له فهو الذي يتلقّى ما يرسله الراوي سواء أكان اسماً متعينا ضمن البنية السردية ، أم كائناً مجهولاً ، وأن المسرودات شفاهية كانت أم مكتوبة ، وسواء أكانت تسجل أحداثاً حقيقية أم أسطورية ، وفيما إذا كانت تخبر عن حكاية أم تورد

النظام وعمرو بن نهوي ، نريد الحديث في الجبان ... فمررنا بمجلس وليد القرشي ...⁽⁶⁸⁾ ، أو مثل قوله : « وصديق قد ابتلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ...⁽⁶⁹⁾ .

وسواء أكانت الحكاية مسندة أو غير مسند فإنّ الجاحظ يعني بالأسلوب القصصي لبداية الحكاية، وهي بدايات تشد القارئ إليها ، فبعض حكاياته تبدأ من خلال بداية متأزّمة تثير حب الاستطلاع في نفوس السامعين أو القارئ من مثل قوله: «وقيل للحارثي بالأس: والله إنك لتصنع الطعام فتجده ، وتعظم عليك النعمة ، وتكثر منه ، وإنك لتغالي بالخبّاز والطباخ والشواء والخبّاص ، ثم أنت مع هذا كله لا تشهدهد عداً لتغمه ، أو ولياً فتسرّه »⁽⁷⁰⁾.

فالحكاية تبدأ بهذا الأسلوب الذي يجذب انتباه القارئ لمعرفة نتيجة هذا الأمر الذي دفع بالحارثي إلى عمل الطعام وتقديمه إلى مَنْ لا يحسن حمده، فيدفعه ذلك لمواصلة قراءة الحكاية إلى نهايتها ليعرف الجواب وسبب هذا التصرف .

أو تحمل الحكاية منذ بدايتها سؤالاً وجواباً بين المتحاورين ويستمر ذلك حتى نهاية الحكاية على هذا النحو : « وقلت لعبد الله بن كاسب مرة : قد رضيت بأن يقال عبد الله بخيل؟

قال : لا أعدمني الله هذا الاسم .

قلت : وكيف ؟

قال : لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ، فسلم إليّ المال وادعني بأي اسم شئت !

قلت : ولا يقال أيضاً : فلان شحيح إلا وهو ذو مال ... »⁽⁷¹⁾.

وتستمر الحكاية على هذا الأسلوب إلى آخرها .

وبعض الحكايات يبدأها الجاحظ « بأماً » ويكثر هذا الأسلوب في الحكايات غير المسندة، وورد هذا في عدد كثير من الحكايات⁽⁷²⁾ ، وهذا مثال على ذلك :

« وأماً ليلي الناعطيّة ، صاحبة الغالية من الشيعة ،

ومرة أخرى نجده يروي الحكاية بضمير الغائب عندما يكون قد سمع الخبر أو عرفه بطريقة ما فيجعل الجاحظ الراوي الأول يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم ويبتعد هو، أو يجعله يروي الحكاية بضمير الغائب، مثل:

« قال أبو كعب: دعا موسى بن جناح جماعة من جيرانه ليفطروا عنده في شهر رمضان، وكنت فيهم، فلما صلينا المغرب، ونجز ابن جناح، أقبل علينا ثم قال: لا تعجلوا، فإن العجلة من الشيطان... اسمعوا ما أقول، فإن فيما أقول حسن المؤكلة، والبعد عن الأثرة...» (88).

إلا أن المتتبع لروايات الجاحظ يجده في كثير من الأحيان ومع إيهامنا بأنه ناقل فقط إلا أنه يتدخل في تعديل بعض الروايات أو التعليق عليها أو توضيحها بمثل:

« وزعموا أنهم ربما تفرقوا وتزاملوا، فتناهدوا وتلازموا في شراء اللحم، وإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ، وأخذ كل منهم نصيبه فشكه بخوصته أو بخيط، ثم أرسله في خل القدر والتوابل، فإذا طبخوا تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة، ثم اقتسم المرق... فإذا أعادوا الملازمة أعادوا تلك الخيوط؛ لأنها قد تشربت الدسم ورويت... » (89).

وهنا انتهت الحكاية إلا أن الجاحظ يعلق هذه الحكاية بقوله: « وليس تناهدهم عن طريق الرغبة في المشاركة، ولكن لأن بضاعة كل واحد منهم مقدار الذي أن يطبخ وحده، ولأن المؤونة تخف أيضاً في الحطب والخل والثوم والتوابل، ولأن القدر الواحد أمكن من أي قدر كل واحد منهم على قدر، فإنما يختارون السكبا (90)؛ لأنه أبقى على الأيام، وأبعد من الفساد. » (91).

فهو يوضح سبب اشتراكهم ذلك من أجل خفة المعونة على كل واحد منهم وليس حب التعاون بينهم.

متوالية بسيطة من الأحداث في زمن ما، لا تستدعي راوياً فحسب، إنما مروياً له أيضاً (76)، وهذا ما ظهر جلياً في حكايات الجاحظ حسب ما بينا سابقاً. ومن خلال استعراضنا للاستهلال السردى عند الجاحظ، وجدنا أن هذه الصيغ تحتاج إلى وجود طرفين، وهما الراوي الذي يروي هذه النوادر أو الحكايات، وهو كما رأينا إما أن يكون معروفاً أو مبهماً، وهذا يقتضي وجود مروٍ له، ثم يقوم هذا بدوره برواية الحكاية إلى القراء أو المستمعين، وبطبيعة الحال فإن الراوي الثاني هو الجاحظ، وقد حرص أن ينقل هذه الروايات كما سمعها أو شاهدها في بعض الأحيان ليكون أميناً في نقله، فهو يستخدم هذه الأساليب من أجل إثبات الأمانة في النقل، فنراه يستعمل الصيغ الآتية من أجل أن يظهر مدى صدقه وأمانته في رواية الحكاية من مثل قوله: « قال أصحابنا... » (77)، أو « زعم أصحابنا... » (78) أو « حدثني صاحب لي... » (79).

أما المشاهدة أو الرواية في مثل قوله: « رأيت أنا حمارة... » (80)، « وكنت أنا وأبو اسحق... » (81) أو « كنّا مرة في موضع... » (82)، وشهدت ثمانية... » (83)، وكنّا عند داود... » (84)، أو كنّا مرة في موضع... » (85) أما السماع، من مثل قوله: « سمعت... » (86).

والملاحظ في كل هذه الصيغ أنها تدل على أمانة الراوي الثاني - وهو هنا الجاحظ - في النقل بهذه الصيغ التي لا تدع مجالاً للشك؛ ليزيل بذلك تردد السامع في قبول الأمور الغريبة في مجال البخل عند من يروي عنهم أو شاهدهم أو سمعهم.

أما طريقة الرواية على لسان الراوي الأول فنجد الجاحظ يروي الحكاية بضمير المتكلم عندما يروي عن تجربته الذاتية من مثل: « حدثني عمرو بن نهيو، قال: تغديت يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جاراً، وكان لي صديقاً، فلم يعرض عليه الطعام... » (87).

(3) الزمن :

على زمنين هما الزمن الذي حدثت فيه أحداث هذه الحكاية، وزمن رواية الجاحظ لها للسامعين، أو كتابتها للقراء، ومثال على هذه الحكاية: « وتناول أعرابي من بين يدي سليمان بن عبد الملك دجاجة فقال له : كيفك ما بين يديك وما يليك ، قال الأعرابي : ومنها شيء حمي ؟ قال : فخذها ، لا بورك لك فيها».(95)

فغداء الأعرابي عند سليمان بن عبد الملك كان في زمن معين ، ورواية الجاحظ لها كان في زمن آخر .

وإذا اقتضت أحداث الحكاية ذكر الوقت الذي جرت فيه هذه الأحداث ، فإن الجاحظ يذكر ذلك الوقت كالليل (96) أو النهار (97) ، أو الصباح (98) ، أو السحر (99) ، أو وقت الغداء (100) ، أو في الشتاء (101) ، أو الصيف (102) ، ويذكر اسم الشهر إذا اقتضى الأمر كتشرين الثاني (103) ، أو رمضان (104).

(4) المكان :

لا يغفل الجاحظ ذكر المكان إذا كان ضرورياً لبناء الحكاية، أما البيئات التي أجرى بها الجاحظ حكاياته ، فتتمثل في أغلب الأحيان في المناطق التي عاش فيها، أو اختلط بسكانها، وأول هذه البيئات هي بيئة البصرة، حيث عاش الجاحظ، وفيها تدور معظم حكاياته حيث يمكن القول: « إن الجاحظ في المقام الأول هو قاص مدينته التي لا يفتأ يشير إلى أبرز معالمها وضواحيها وشخصياتها... »(105).

من مثل قوله : « قالوا : دعا عبد الملك بن قيس الذئبي، رجلاً من أشرف أهل البصرة، وكان عبد الملك بخيلاً على الطعام ، جواداً بالدرهم... »(106).

أو كمثل قوله : « قالوا : ابن أبي بردة قد خاف الجذام وهو والي البصرة ، فوصفوا له الاستنقع في السمن ، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر

الحكاية عند الجاحظ تقوم على ثنائية الإسناد والمتن، لذلك فإن زمن الحكاية يتكون من ثلاثة أزمنة، وهي زمن التلقي أو السماع، وزمن الرواية، وزمن الحكاية، فالاستهلال يشير إلى زمنين والمتن يشير إلى الزمن الثالث ، ويكون ترتيبها على النحو التالي : الزمن الأول : هو زمن المتن، أي الزمن الذي حصلت فيه أحداث الحكاية.

الزمن الثاني : هو زمن تلقي الجاحظ للحكاية من الراوي الأول.

الزمن الأخير : هو زمن رواية الجاحظ للحكاية وتقديهما إلى المستمعين أو القراء . ولتوضيح ذلك يضرب مثلاً من حكاياته :

« حدثني المكي قال : كنت يوماً عند العنبري ، إذ جاءت جارية أمة ومعها كوز فارغ ، فقالت : قالت أمك : بلغني أن عندك مزلة(92)، ويومنا يوم حار ، فابعث إلي بشرية منها في هذا الكوز ، قال : كذبت ! أمي أعقل من أن تبعث بكوز فارغ ، وتردّه ملآن ! إذهبي فاملئي من ماء حبكم ، وفرغيه في حُبناً(93)، ثم املئي من ماء مزملتنا ، حتى يكون شيء بشيء »(94).

فأحداث هذه الحكاية من قدوم الجارية ومعها الكوز ورده لها ثم عودتها ، كل هذه الأحداث تمثل الزمن الأول ، ولا يظهر في أي وقت حصل إلا أنه في يوم حار ، وهل حصل قبل يوم أو شهر أو عام أو أكثر من رواية المكي إلى الجاحظ فهو لا يدرك ولا يوجد عليه دليل.

والزمن الثاني : هو عندما روى المكي هذه الحكاية إلى الجاحظ .

أما الزمن الثالث: فهو الذي روى فيه الجاحظ الحكاية على المستمعين أو يكتبها، ويقدمها إلى القراء في زمن لاحق.

وعندما تكون الحكاية بدون إسناد فإنها تقتصر

ببيعه...»⁽¹⁰⁷⁾.
والبيئة الثانية في حكايات الجاحظ هي بيئة العراق بشكل عام، كبغداد أو بعض محالها كالكرخ أو مدينة واسط⁽¹⁰⁸⁾ والمدائن⁽¹⁰⁹⁾، وهذه بعض الأمثلة على ذكره لهذه الأمكنة:
« قال : وقلت لأحمد بن هشام ، وهو يبني داره ببغداد: إذا أراد الله ذهاب مال رجل سلط عليه الطين والماء ... »⁽¹¹⁰⁾.

(5) الوصف :

استخدم الجاحظ الوصف في معظم حكاياته، وكان بارعاً في ذلك فهو يستخدم التفاصيل الدقيقة في رسم صوره فيتتبع حركات شخصياته وسكناتها وينقل للقارئ أو المستمع أدق التفاصيل عن مآكلهم ومشاربهم ومسكنهم وملابسهم وأدواتهم إلى غير ذلك من التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بالشخصية أو المكان أو الحادثة المتعلقة بالحكاية، من مثل قوله: «رأيت أنا حمارة منهم زهاء خمسين رجلاً ، يتغدّون على مباقل بحضرة قرية الأعراب، في طريق الكوفة ، وهم حجاج ، فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معاً وهم في ذلك متقاربون ، يحدث بعضهم بعضاً ، وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس»⁽¹¹⁸⁾.

فهو يصور جلوسهم على المبقلة ، وتقاربهم في الجلوس وتحادثهم مع بعضهم البعض، ومع ذلك يأكل كل واحد منهم وحده ، وهذا الذي استغربه الجاحظ، فقد أضفى جمالاً على هذه الحكاية من خلال هذا الوصف لشخصوها وحركاتهم وتقاربهم في الجلوس بدون الاشتراك في الأكل .
وبعضها يكون فيه الوصف التقاطاً للحركة، أو الهيئة، أو الشكل الإنساني أو المادي، فنجد عنده بعض اللقطات الدقيقة ، كمشهد القصعة في حكاية ثمامة وقاسم التمار : « فأتوه يوماً بقصعة فيها ثريدة كهيفة الصومعة »⁽¹¹⁹⁾ ، مكللة بإكليل من

وذكره للكرخ كما قال : « وحدثني صاحب مسلحة باب الكرخ قال : قال لي صاحب الحمام ، ألا أعجبك من صالح بن عفان ؟ كان يجيء كل سحر فيدخل الحمام... »⁽¹¹¹⁾
أما البيئة الثالثة التي أكثر الجاحظ من ذكرها فهي بيئة خرسان وبخاصة مدينة مرو لاشتهار أهل هذه المدينة بالبخل ، فيقول : « وزعم أصحابنا أن خراسانية توافقوا في منزل وصبروا على الارتفاق بالمصباح... »⁽¹¹²⁾
أو مثل قوله : « قال أصحابنا : يقول المروزي للزائر إذا أتاه ، وللجليس إذا أطال جلوسه، تغديت اليوم؟... »⁽¹¹³⁾

أو تكون الحكاية تربط بين العراق ومرو مثل هذه الحكاية : « ومن أعاجب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحجّ ويتجّر وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته ، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي : ليت أتي قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك لقديم إحسانك ... قال فعرضت لذلك العراقيّ بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب، أن المروزيّ هناك ، فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحيط رحله عنده كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه ... »⁽¹¹⁴⁾.

أما البيئات الأخرى مثل الشام ومصر والحجاز ،

عُراق⁽¹²⁰⁾ بأكثر ما يكون من العراق...»⁽¹²¹⁾.

وعنده نوعان من الوصف :

أ. الوصف النفسي :

برع الجاحظ في وصف دخائل النفس الإنسانية، فهو يتسلل إلى أعماق نفس الإنسان، ومن الحكايات التي برع الجاحظ في تبين الوصف النفسي فيها حكاية محمد بن أبي المؤمل : « قلت لمحمد بن المؤمل : أراك تطعم الطعام وتتخذ⁽¹²²⁾، وتنفق المال وتجود به ، وليس من قلة الخبز وكثرته كثير ربح، والناس يبخلون من قلّ عدد خبزه ، ورأوا أرض خوانه ، ومع أنّي أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك»⁽¹²³⁾ ...

وبعد عدة نصائح من الجاحظ - «قال: يا أبا عثمان : أنت تخطئ ، ... وما أشك أنك قد نصحت بمبلغ الرأي منك ، ولكن خف ما خوَّفَكَ، وانه مخوف ! بل الذي أصنع أدلّ على سخاء النفس بالمأكول وأدلّ على الاحتيال لليبالغوا، لأن الخبز إذا كثر على الموائد ورث ذلك النفس صدوداً، ولأن كل شيء من المأكول وغير المأكول ، إذا ملأ العين ملأ الصدر ، وفي ذلك موت الشهوة وتسكين الحركة»⁽¹²⁴⁾.

ويستمر أبو المؤمل في تبرير قلة خبزه في قصة طويلة، ونرى هنا أن الجاحظ دخل في نفس هذا الشخص؛ ليتعرف على سبب تصرفه من تقليل الخبز على المائدة التي يقدمها لضيوفه .

ومن ضمن الوصف النفسي براعته في وصف حيل البخلاء وطرقهم في جمع المال، وعدم إنفاقه بأي شكل من الأشكال، ومثال على ذلك حكاية أبي سعيد المدائني : « حدثني أحمد المكيّ ، وكان متصلاً بأبي سعيد ، قلت له مرّة : والله إنك لكثير المال ، وإنك لتعرف ما نهجل ، وإن قميصك وسخ ، فلم لا تأمر بغسله ؟

قال: إنّني فكّرت في هذا مذ ستة أشهر فما وضع لي بعد وجه الأمر فيه ، أقول مرّة : الثوب إذا اتسخ أكل

البدن كما يأكل الصدأ الحديد ، والثوب إذا ترادفه العرق جف وتراكم عليه الوسخ ولبدّ أكل السلك ، وأحرق الغزل، هذا مع نتن ريحه ، وقبح منظره... فإذا اجتمعت هذه الخواطر هممت بغسلها ، فإذا هممت به ، عارضني معارض يوهمني أنه أتاني من جهة الحزم ، ومن قبل العقل ، فقال : أول ذلك الغرم الذي يكون في الماء والصابون ، والجارية إذا ازدادت عناء ، ازدادت أكلاً ، والصابون نُورة⁽¹²⁵⁾ والنورة تأكل الثوب ، وإن انحزق⁽¹²⁶⁾ لا يزال الثوب على خطر ، حتى يسلم إلى العصر والدقّ، ثم إذا ألقى على الرسن⁽¹²⁷⁾ فهو بعرض الجذبة والنترة والعلق⁽¹²⁸⁾.

ويستمر أبو سعيد طويلاً في تعليل ما ذهب إليه ، وبقبوله لبس الثوب وسخاً مع علمه بذلك ، ولكنّه يؤثّر على تحمّل نفقات غسله .

ب. الوصف الحسي :

عمد الجاحظ إلى الصورة الحقيقية التي تعبّر عن الواقع كما هو، ولم يعتمد على الخيال كثيراً في صوره ، فهو يعمد إلى إبراز الصورة بأدق تفاصيلها بحركاتها وهيئاتها ، وكلّ مقوماتها ، حتى تبدو كأنها ناطقة متحركة ، ومن الأمثلة على ذلك :

« ولقد رأيت رجلاً ضخماً ، فخم اللفظ ، فخم المعاني تربيته في ظل ملك ، مع علوّ همّ ، ولسان غضب ، ومعرفة بالفاضح من العيوب والدقيق من المحاسن ، مع شدّة تسرع إلى أعراض الناس وضيق صدر بما تعرّف من عيوبهم .

وأنّ ثريدته لبلقاء ، إلا أن بياضها ناصع ، ولونها الآخر أصهب ، ما رأيت ذلك مرّة أو مرتين »⁽¹²⁹⁾ .
فلاحظ كيف أخذ الجاحظ يعدّد صفات هذا الرجل الحسيه، فإذا انتهى منها انتقل إلى وصف ثريدته .

6) شخصيات الجاحظ :

طبع الجاحظ شخصيات حكاياته بطابع واحد هو البخل، فكل شخصياته من البخلاء بغض النظر عن موقعهم الاجتماعي، أو السياسي، أو موطنهم، أو علمهم، أو جهلهم، فالصفة المشتركة بينهم هي البخل، إلا أنه جعل شخصياته تنقسم إلى قسمين :

أ) البخل الضحية : هي الشخصية التي يفرض عليها موقف معين أو يؤخذ منها، فالجاحظ يستغل هذه الشخصية من أجل السخرية؛ لأن البخل وقع فريسة لغيره، ونضرب مثلاً على هذه الشخصية بالحكاية التالية :

« وكان رجل يغشى طعام الجوهري ، وكان يتحرى وقته ولا يخطئ فإذا دخل والقوم يأكلون ، وحين وضع الخوان ، قال : لعن الله القدرية⁽¹³⁰⁾ من كان يستطيع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام ، وقد كان في اللوح المحفوظ وأني سأكله ؟

فلما أكثر من ذلك قال له رباح : تعال بالعشي أو بالغدوة، فإن وجدت شيئاً فالعن القدرية والعن آباءهم وأمهاتهم »⁽¹³¹⁾.

ومن هذا النوع أيضاً وقوع الأمر على البخل، وكيف يتصرف البخل؛ لدفع الغرم عن نفسه، كما حدث بين الجاحظ ومحمفوظ النقاش « صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله، سألتني أن أبيت عنده، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار ؟ وعندي لبأ لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة لا تصلح إلا له !

فملت معه فأبطأ ساعة، ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت قال : يا أبا عثمان، إنه لبأ وغلظه ! وهو الليل وركوده، ثم ليله مطر ورطوبة وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً.... فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ، كنت لا أكلاً ولا

تاركاً، وحرشت طباعك ... وإن بالغت، بتنا في ليلة سوء من الاهتمام لأمرك »⁽¹³²⁾.
فنحن نلاحظ أن النقاش دعا الجاحظ وأغراه بأن عنده لبأ لم ير مثله ولما صار الجاحظ في بيته ورأى أن الغرم سوف يقع عليه، كيف حاول هذا أن يدفع الجاحظ بكل الحيل عن الأكل حتى يتخلص من هذا الغرم.

« فالجاحظ هنا يتدخل في القص بوصفه راوياً أو بالأحرى مسجلاً لتجربته، وهو يتحدث بضمير حضوره وإثبات وجهة نظره، على أن الجاحظ يمثل في الوقت نفسه الـ «هو» الآخر الذي يعيش معه ظاهرة البخل في المجتمع»⁽¹³³⁾.

وقد لاحظ بروب « أنه في هذه الحكايات على الرغم من تغير الأسماء وخواص الشخصيات إلا أن الوظائف لم تتغير »⁽¹³⁴⁾.

ب) البخل المنتصر :

وهو الذي يستغل اللوائ دائماً، مستغلاً ذكائه في توفير الطعام، ومن هؤلاء حكاية : « وصديق كنا قد ابتلينا بمؤاكلته، وقد كان ظن أننا قد عرفناه بالبخل على الطعام، وهجس ذلك في نفسه، وتوهم أننا قد تذاكرنا أمره فكان يتزايد في تكثير الطعام، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل، حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمنه ديناراً ... »⁽¹³⁵⁾.

ومعظم حكايات الجاحظ تقع تحت هذا النوع الذي يبخل بطعامه، ويهجم على طعام غيره بغير هودة.

الخاتمة

بعد التطواف في كتاب البخلاء للجاحظ، وتتبع حكاياته المختلفة المتنوعة وجدت أن الجاحظ كعادته في معظم كتبه لم يلتزم اسلوباً واحداً بل نهج إلى اسلوب الاستطراد فهو ينتقل من حكاية إلى أخرى وقليل ما يظهر الرابط بينهما إلا في بعض المواقع كحكايات المسجدين وحكايات أهل مرو، وقد استغل

وزير المتوكل لما أثر عن الفتح من الاعجاب بكتب الجاحظ، وحثه على التأليف في مختلف الشؤون، أو ابن المدبر، وقد كان للجاحظ صديقاً حميماً. أحمد العوامري ورفيقه، مقدمة تحقيق كتاب البخلاء، ص 15.

(14) الجاحظ، البخلاء، 20 / 1.

(15) المصدر نفسه، ص 21.

(16) ينظر: المبارك، محمد، الجاحظ وفن القصص

في كتاب البخلاء (دراسة نصية)، ص 13-15.

(17) ابن بيري، أحمد بن محمد، صورة بخيل

الجاحظ الفنية، ص 63.

(18) الجاحظ، البخلاء، ص 30.

(19) المصدر نفسه، ص 18.

(20) المصدر نفسه، ص 30.

(21) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(22) المصدر نفسه، ص 18.

(23) المصدر نفسه، 23 / 1.

(24) المصدر نفسه، ص 27.

(25) المصدر نفسه، ص 30.

(26) المصدر نفسه، ص 32.

(27) سلاً السمن: طبخه وعالجه، الجاحظ، البخلاء،

55 / 1.

(28) المصدر نفسه، 56 / 1.

(29) المصدر نفسه، 56 / 1.

(30) المصدر نفسه، 58 / 1.

(31) ابن بيري، أحمد بن محمد، صورة بخيل

الجاحظ الفنية، ص 121-122.

(32) ينظر: الجاحظ، البخلاء، 5 / 1.

(33) الجاحظ، البخلاء، 33 / 1.

(34) المصدر نفسه، ص 34.

(35) الجاحظ، البخلاء، ص 35-36.

(36) المصدر نفسه، 36 / 1.

(37) اليوسف، الأب فيكتور شلحت، النزعة

معرفته العميقة والواسعة في اللغة فوجد الغريب بكثرة في حكاياته كما استعمل الألفاظ العامة الدارجة في ذلك العصر لأن فكرته عن النكتة أو النادرة أو الملحة يجب أن تروى بلغتها وعلى الراوي لها أن لا يغير في هذه اللغة؛ لأن ذلك يذهب رونقها، وأكثر ما نوع في الاستهلال السردى وأبدع في تصوير شخصياته؛ ليبرزها في صورة مضحكة من تصرفات هؤلاء البخلاء وينفر القارئ من البخل وأهله وجاء هذا الإبداع في السرد لشد القارئ للاستماع إلى هذه الحكايات؛ وقد اعتمد على عنصرى الزمان والمكان لتتحرك شخصياته ضمنها ليبين أن هذه الحكايات، من الواقع وليس من نسج الخيال، فجاء بناء الحكاية منسجماً مع فلسفته عن البخل وأهله.

الهوامش

(1) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 74 / 16.

(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، 75 / 16.

(5) المصدر نفسه، 3 / 1.

(6) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 3 / 1.

(7) ينظر: الحاجري، طه، الجاحظ حياته وآثاره،

ص 96-100.

(8) ينظر: الجاحظ، كتاب البخلاء، المقدمة، ص 4.

(9) ينظر: المصدر نفسه، ص 13-14.

(10) ينظر: الجاحظ، كتاب البخلاء، المقدمة، ص

4.

(11) ينظر: المصدر نفسه، ص 5.

(12) ينظر: المصدر نفسه، ص 5.

(13) رجح محققا كتاب البخلاء أن العظيم الذي

قدم له هذا الكتاب هو أحد ثلاثة: محمد بن عبد

الملك الزياد وزير المعتصم والواثق، لما كان بينه

وبين الجاحظ من وثيق الصلة، أو الفتح بن خاقان

- (54) المصدر نفسه ، 1 / 103 .
- (55) المصدر نفسه ، 2 / 166 .
- (56) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 86 .
- (57) المسلحة: قوم وكلوا بمرصد معهم السلاح.
- الجاحظ، البخلاء، 84 / 1.
- (58) المصدر نفسه ، 1 / 84 .
- (59) المصدر نفسه ، 1 / 74 .
- (60) ينظر : المصدر نفسه ، 2 / 103 .
- (61) المصدر نفسه ، 1 / 121 .
- (62) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 114 .
- (63) المصدر نفسه ، 1 / 74، 71، 120، 108 و 2 / 90، 3.
- (64) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 74 .
- (65) إبراهيم ، عبد الله ، السردية العربية ، ص 19 .
- (66) المصدر نفسه ، ص 19، 20 .
- (67) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 20 .
- (68) المصدر نفسه ، 1 / 45 .
- (69) المصدر نفسه ، 47 / 1 .
- (70) المصدر نفسه ، 83 / 1 .
- (71) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
- (72) المصدر نفسه ، 1 / 101 .
- (73) المصدر نفسه ، 1 / 162 .
- (74) المصدر نفسه ، 2 / 171 .
- (75) المصدر نفسه ، 1 / 115 .
- (76) المصدر نفسه ، 1 / 118 .
- (77) المصدر نفسه ، 1 / 48 .
- (78) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 45 .
- (79) المصدر نفسه ، 2 / 51 .
- (80) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 54 .
- (90) السكباغ: لحم يطبخ بخل، معرب . الجاحظ، البخلاء، 55 / 1.
- (91) المصدر نفسه ، 1 / 54-55 .
- (92) الرملة: جرة أو نحوها، ملفوفة بثوب مبلول
- الكلامية في أسلوب الجاحظ ، ص 123 .
- (38) الحُضر : العدو. اللسان، (حضر).
- (39) انبهر: تتابع النفس. اللسان، (بهر) .
- (40) الجاحظ ، البخلاء ، 31-32 / 2 .
- (41) الحاجري ، طه ، الجاحظ حياته وآثاره ، ص 14 .
- (42) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 47 .
- (43) الجاحظ ، البخلاء ، 2 / 55 .
- (44) ابن بيريك ، أحمد بن محمد ، صورة بخيل الجاحظ الفنية ، ص 133-142 .
- (45) دوجلاس ، فدوى مالطي ، بناء النص التراثي، ص 20 .
- (46) الجاحظ ، البخلاء ، 20-21 / 2 .
- (47) المصدر نفسه ، 2 / 59 .
- (48) الجاحظ ، الحيوان ، 2 / 75 .
- (49) المصدر نفسه ، 2 / 195 .
- (50) ينظر : المصدر نفسه ، 2 / 83، 162، 168، 193 .
- (42) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 55، 62، 74، 101 .
- (43) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 46، 61 و 2 / 146 .
- (44) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 27، 43، 55 .
- (45) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 45، 47، 62 .
- (46) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 45، 47، 55، 59 .
- 71، 83، 84، 85، 104، 105، 143 و 2 / 2، 30، 39، 55، 56، 60، 69، 76... الخ.
- (47) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 60، 61 و 2 / 85، 87، 86 .
- (48) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 83، 84، 85، 86، 89 .
- (49) ينظر : المصدر نفسه ، 1 / 143 .
- (50) ينظر : المصدر نفسه ، 2 / 47 .
- (51) المصدر نفسه ، 1 / 108 .
- (52) المصدر نفسه ، 1 / 85 .
- (53) الجاحظ ، البخلاء ، 1 / 71 .

- لتبريد. الجاحظ، البخلاء، 27 / 2.
- (93) الحب: الخابية والجرة الكبيرة. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (94) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (95) المصدر نفسه، 1 / 84.
- (96) الجاحظ، البخلاء، 1 / 56 و 2 / 45.
- (97) المصدر نفسه، 1 / 59.
- (98) المصدر نفسه، 61 / 1.
- (99) المصدر نفسه، 1 / 84.
- (100) المصدر نفسه، 1 / 83.
- (101) المصدر نفسه، 2 / 3.
- (102) المصدر نفسه، 2 / 3.
- (103) المصدر نفسه، 1 / 108.
- (104) المصدر نفسه، 1 / 51.
- (105) الحكاية في أدب الجاحظ، ص 182.
- (106) الجاحظ، البخلاء، 2 / 84.
- (107) الجاحظ، البخلاء، 2 / 86.
- (108) ينظر: المصدر نفسه، 1 / 115.
- (109) ينظر: المصدر نفسه، 2 / 59، 64.
- (110) المصدر نفسه، 1 / 60.
- (111) المصدر نفسه، 1 / 84.
- (112) المصدر نفسه، 1 / 47، وينظر: 1 / 48، 55، 56.
- (113) المصدر نفسه، 1 / 45، 50، 53، 54، 60، 62.
- (114) الجاحظ، البخلاء، 1 / 53.
- (115) الجزيرة ما بين دجلة والفرات، اللسان، (جزر).
- (116) الجاحظ، البخلاء، 42 / 2.
- (117) ينظر: المصدر نفسه، 46 / 1، 61 / 1، 62 / 1، 45 / 2، 156 / 2.
- (118) الجاحظ، البخلاء، 1 / 47.
- (119) الصومعة: من البناء سميت صومعة لتلطيف
- اعلاها، وصومعة الثريد جثته وذروته، اللسان، (صمغ).
- (120) العراق: جمع عرق (بفتح وسكون) العظم إذا اخذ عنه معظم اللحم وهبره وبقي عليه لحوم رقيقة، اللسان، (عرق).
- (121) الجاحظ، البخلاء، 2 / 157.
- (122) تتخذ: تعمل، والمراد: تعنى بإجادته، بقرينة المقام، الجاحظ، البخلاء، 1 / 171.
- (123) الجاحظ، البخلاء، 1 / 171.
- (124) المصدر نفسه، 1 / 172.
- (125) النور: من الجمر الذي يحرق ويسوى منه الكلس ويخلق به الشعر، اللسان، (نور).
- (126) الحزق: شدة جذب الرباط، اللسان، (حزق).
- (127) الرسن: وهو الحبل، والمراد هنا الحبل الذي تنشر عليه الثياب، اللسان، (رسن).
- (128) الجاحظ، البخلاء، 2 / 69، 70.
- (129) المصدر نفسه، 1 / 105.
- (130) القدرية: طائفة تجحد القدر، وترى أن للمرء اختياراً فيما يعمل وفيما يترك، ويقصد لعن الله القدرية أنهم أخطأوا في دعوتهم؛ لأنهم لو صدقوا لاستطاع أن يصرف نفسه عن حضور الطعام، الجاحظ، البخلاء، 2 / 81.
- (131) المصدر نفسه، 2 / 81.
- (132) الجاحظ، البخلاء، 1 / 45، 46.
- (133) إبراهيم، نبيلة، فن القص في النظرية والتطبيق، ص 88.
- (134) دوجلاس، فدوى مالطو، بناء النص التراثي، ص 21.
- (135) الجاحظ، البخلاء، 1 / 103.

قائمة المصادر والمراجع :

- (1) إبراهيم، عبد الله: السردية العربية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 2000م.
- (2) إبراهيم، نبيلة: فن القصص في النظرية والتطبيق. مكتبة غريب.
- (3) ابن بيري، أحمد بن محمد: صورة بخيل الجاحظ الفنية. دار الشؤون الثقافية العامة.
- (4) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب البخلاء. ضبط وشرح وتصحيح أحمد العامري بك، على الحارم بك.
- (5) الجاحظ، محمد طه: الجاحظ حياته وآثاره. ط3، دار المعارف، القاهرة، 1976م.
- (6) الحموي، ياقوت: معجم الأديباء. دار الفكر، 1980م.
- (7) دوجلاس، فدوى مالطي: بناء النص التراثي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.
- (8) أبو الرب، توفيق يوسف: الحكاية في أدب الجاحظ. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1984م.
- (9) ابن منظور: لسان العرب. طبعة بولاق.
- (10) شخاتره، خولة: بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ. أزمدة للنشر والتوزيع، ط2، 2006م.